اثر خالد

في تاريخ الفكر العربي

— كتاب الفهرست لابن النديم —

—*—

توارد الفرنج الى المشرق لغايات شتى فاحتملوا معهم هم ورجال حملة نابليون كثيراً من المخطوطات العربية . وكان بين هذه المخطوطات اثنتان لفهرست ابن النديم جيء باحداهما من القاهرة الى باريس في القرن الثامن عشر وجيء بالاخرى من القسطنطينية الى ليدن في نفس ذلك الزمن تقريباً فتهافت علماء المشرقيات الجرمان على هاتين النسختين وعهد الى الاستاذ « جوستاف فلوجل » درسهما حوالى سنة ١٨٥٠م فاستغرق درسه نيفاً وعشرين عاماً وتوفي سنة ١٨٧١ قبل ان ينجز طبعهما فأشرف على الطبع مكانه « روديجر وموللر » وقد نجزت طبعة الكتاب في سنة ١٨٧٢م . ومع ان الكتاب جاء — كغيره من المخطوطات التي تطبع لاول مرة — مملوءاً بالاغلاط الفاحشة فقد كانت له مكانة عظيمة في الاوساط الاوربية التي تهتم بالمشرقيات لاسيما وقد بذل فلوجل جهده في ضبط اسماء الرجال من المصادر العربية التي كانت بين يديه عندئذ . بيد ان النسخة التي طبعها ظلت مبتورة . وهذا ثابت بدليلين :

اولها — ان ياقوت يذكر في «معجم الادباء» اسماء كثير من العلماء ثم يصرح نقله عن كتاب الفهرست فاذا رجعنا الى النسخة المطبوعة لانجد لذلك اثراً على الاطلاق[1] ومثال ذلك انه « اورد ترجمة الجاحظ في الجزء السادس من معجمه (ص ٧٥) ونقل فيها عن كتاب الفهرست ان ابن النديم قال : (ورأيت انا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى

(١) كتاب التاج — تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص ٤٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويكنى ابايحيى وراق الجاحظ) ولا توجد هذه العبارة في النسخة المطبوعة [١] » .

ثانيهما = « ان الاستاذ (هونسما) عثر على جملة تراجم مما كتبه ابن النديم وهي غير واردة في النسخة المطبوعة فنشرها في المجلة التساوية للعلوم الشرقية [٢] » .

وقد ساعد الحظ المستشرق (ريتر) فعثر في العام الماضي على مخطوطتي فلوجل الاصليتين بعد ان فقدتا زمناً طويلاً — نعني : مخطوطة باريس وهي تتضمن المقالات الست الاولى من الكتاب والمخطوطة المنقولة عن مكتبة شهيد علي باشا بالقسطنطينية وليس فيهما الا اربع المقالات الأخيرة من الكتاب وهذه ربما كانت بخط المؤلف نفسه — وأخذ يعد طبعة جديدة كاملة مستنداً اليهما وعلى مخطوطة بكي جامع [٣] ومخطوطتي الكوبريلي [٤] بالقسطنطينية ولكن فاته ان يتصل بالنسخة الموجودة بمكتبة المرحوم عارف حكمت بالمدينة المنورة [٥] ولهذا فستظل نسخته ناقصة .

والذي يظهر ان المؤلف جعل كتابه في جزءين مستقل احدهما عن الآخر : تضمن الاول منهما وهو ما حوته مخطوطة باريس — أبحاثاً اسلامية محضة (الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين والنحو والسير والشعر والشعراء والكلام والمتكلمين والفقه والفقهاء والمحدثين) . وتضمن الثاني ابحاثاً عن علوم عرفت قبل الاسلام ونمت في أوساط غير اسلامية (الفلسفة والعلوم القديمة والأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة والمذاهب والاعتقادات والكيمائيين والصوفيين من الفلاسفة القدماء والمحدثين) والدليل على ذلك ان المؤلف يتخذ سنة ٣٧٧ هـ تاريخاً لتأليفه ويذكرها في مواضع كثيرة من القسم الاول من الكتاب بينما هو لا يتعرض لها ابداً في القسم الثاني منه .

على ان الكتب الاخرى التي يمكن الالتجاء اليها في ضبط الكتاب أصبحت اليوم كثيرة بفضل ماطبع في مصر واوربا من كتب التاريخ والتراجم العربية فلدينا اليوم طبقات الاطباء ومعجم الادباء وتاريخ ابن القفطي ونزهة الألباء وبغية السيوطي مثلاً وكلها قريبة المتناول

(١) كتاب التاج — تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص ٤٤ .

(٢) » » ص ٤٥ . (٣) رقم ٨١٥ وعنوانها اسامي الكتب المسمى بالتذكار الجامع للآثار . (٤) رقم ١١٣٤ و ١١٣٥ وكل منهما عنوانه فهرس العلوم .

(٥) رقم ٤٤٧ بعنوان فهرست العلوم القديمة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحبذا لو ان الاستاذ احمد امين الذي وقف على طبع الكتاب في العام الماضي قام بهذه المهمة الشاقة فصحح لنا الكتاب وأظهره كاملاً بقدر الامكان . على ان الأمل في الحصول على نسخة تامة صحيحة في القريب العاجل كبير جداً وقد عهدت جامعة كولومبيا الى الدكتور (ضودج) رئيس الجامعة الاميركية في بيروت بان يقوم بتصحيح الكتاب وترجمته الى اللغة الانكليزية .

غير ان معرفتنا بالمؤلف نفسه ستظل كما كانت سابقاً ان لم يتح لاحد ان يكتشف مخطوطة جديدة تُفصل من حياة ابن النديم ما أجملته الكتب التي لدينا اليوم والتي نعتقد بانه لم يكن لها مصدر نقتبس منه سوى كتاب المؤلف نفسه . وعلى هذا فليست كتابة ياقوت في (إرشاد الاريب) ولا كتابة ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (في لسان الميزان الملحق بميزان الاعتدال للذهبي) إلا مصدراً ثانوياً عن حياة المؤلف . وكذلك لا يمكننا ان نقبل من ابن النجار قوله (في ذيل تاريخ بغداد) ان ابن النديم « مات يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ هـ » وابن النديم نفسه يذكر في تراجم بعض الرجال تواريخ بعد هذه السنة اللهم الا ان ذهبنا مذهب فلوجل والاستاذ احمد امين[1] وقلنا « ان المؤلف كتب نسخته سنة ٣٧٧ هـ وكان يترك فيها بياضاً يملؤه بما يجده بعد ذلك او يضع على النسخة تعليقات في أزمنة مختلفة » وقد « جرى ذلك في تراجم ابن خلكان[2] » .

ولذا نعتبر هذه التواريخ منتحلة بكاملها كما قال (فيك[3]) فلنتول وجهنا اذاً شطر كتاب المؤلف لنقف — قدر المستطاع على حقائق حياته منه .

اسمه محمد بن اسحق النديم المعروف بابي الفرج ابن ابي يعقوب الوراق[4] كتب الجزء الاول من كتابه كما يقول مراراً فيه — سنة ٣٧٧ هـ ثم أضاف اليه مقالات أخرى بين هذا التاريخ واول القرن الخامس . وأخبرنا ابن النديم في مكان آخر من كتابه في ترجمة البردعي[5] بانه « لقيه وكان به آنساً » وهذا ما يجعلنا نفترض تاريخاً لولادته يختلف بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٢٥ هـ ويكون قد بدأ كتابة مؤلفه بعد ان اجتاز العقد الخامس من عمره وتوفي في

(١) انظر مقدمة طبعة فلوجل ومقدمة طبعة مصر . (٢) أبدى لي هذا الرأي الاستاذ السيد عمر الصالح البرغوثي سنة ١٩٣٠ . (٣) في مجلة جمعية المستشرقين الجرمان ZDMG ج٨٤ ص . (٤) انظر ص ٢٨٠ و٣٣١ من طبعة مصر . (٥) ص ٣٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أول القرن الخامس شيخاً كبيراً . نعرف ذلك من قوله في ترجمة ابن نباتة انه « ابو نصر ابن نباتة التميمي من شعراء سيف الدولة وتوفي بعد الاربعمائة[1] » ومن قوله في ابن جني انه توفي سنة ٣٩٢ هـ[2] .

اما موطنه فبغداد بلاشك لانه يذكر كثيراً عن تفاصيل حياة البغداديين فيحصي لنا عدد مانوية بغداد ايام حكم معز الدولة فيقول : « فأما مدينة السلام فكنت أعرف منهم (اي المانوية) في ايام معز الدولة نحو ثلاثمائة واما في وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة انفس[3] » .

وقد قال ابن النديم في حديثه عن مذاهب أهل الصين انه لقي راهباً من اهل نجران كان قد « أنفذه الجاثليق ... الى بلد الصين وأنفذ معه خمسة أنامي من النصارى وعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر » قال : « فلقيته بدار الروم وراء البيعة » . وقد ذهب فلوجل في سنة ١٨٧١ م وأيد مذهبه المستشرق (فيك) الى ان دار الروم هي القسطنطينية وأن البيعة هي كنيسة القسطنطينية الكبرى التي شادها يوستنيانوس وحولها الترك فيما بعد الى مسجد آجياصوفيا . وعلى ذلك قالا : ان ابن النديم زار القسطنطينية . وخالفهم في هذا الرأي جمهور المستشرقين والاستاذ احمد امين . والحقيقة ان ابن النديم — على مانعرف — لم يصل القسطنطينية وليس في وسعنا ان نستنتج من هذه العبارة انه كان فيها ذات يوم . ويتضح ذلك بخمسة براهين :

اولها — ان التاريخ — على مانعرف — لم يذكر ان العرب اسموا القسطنطينية دار الروم بل كانوا يعرفونها (ببلد الروم) وهكذا فعل ابن النديم نفسه في كتابه .

ثانيها — ان مؤرخي العرب يقولون ان المدن العربية الكبرى كانت منقسمة الى محال وكل محلة من هذه كانت تعرف بدار وتنسب الى اسم معين فمن ذلك مثلاً : ان ياقوت[4] يقول :

« دار القز محلة كبيرة ببغداد في طرف الصحراء ... وكل ماحولها قد خرب ولم يبق الا اربع محال متصلة » ثم يقول : « دار الفرج محلة كانت ببغداد » وان صاحب

(١) ص ٢٤٠ . (٢) ص ١٢٨ . (٣) ص ٢٧٢ .

(٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣٢ ليبسك سنة ١٨٦٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التكملة[١] قال : « لما ورد سيف الدولة الى بغداد فاجتاز بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان » .

ثالثها — ان ابن النديم نفسه ذكر في ترجمة ابن كلاب[٢] مانصه : « قال ابو العباس البغوي دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي فقال رحم الله عبد الله (يعني ابن كلاب) كان يجيء فيجلس الى تلك الزاوية وأشار الى ناحية من البيعة » . وعلى هذا فكانت دار الروم محلة ببغداد والبيعة هي بيعة النصارى في دار السلام لا كنيسة آجيا صوفيا .

رابعها — انه لو كانت دار الروم القسطنطينية لكان الذي أنفذ الراهب والأناسي معه البطريرك وهو أعلى سلطة دينية في البلاد لا الجاثليق الذي هو دون البطريرك لان كرسي البطريرك في القسطنطينية وكرسي الجاثليق في بغداد الذي هو زعيم النصارى في بلاد الاسلام .

قال البيروني في كتابه[٣] : « فاثوليقا وهو الجاثليق ومقام جاثليق الملكائية من بلاد الاسلام بمدينة السلام وهو من تحت يد بطريرك أنطاكية فأما جاثليق النسطورية فيكون من عند امير المؤمنين على رضى من جمهورهم » . اما القلقشندي[٤] فقال ان درجات النصارى الدينية ثمانية سادسها الجاثليق (بالثاء والشاء) « وهو عندهم صاحب الصلاة » وذكر هيستنكز ان هذا اللقب « لم يكن معروفاً عند غير الأرمن واليعاقبة والنساطرة » واول جاثليق للنساطرة في بغداد كان ثيموسيوس وكان صديقاً للمهدي وهارون الرشيد . وقد نشرت مجلة جمعية المستشرقين الجرمانية نسخة عهد صادر من امير المؤمنين الى جاثليق النساطرة ببغداد في القرن الثالث عشر للميلاد جاء فيها : « ولما انتهت حالك الى امير المؤمنين وأنك أمثل اهل ملتك طريقةً وأقربهم الى الصلاح مذهباً وخليقةً ... اتفقوا باجتماع من آرائهم والتئام من قلوبهم وأهوائهم على اختيارك لرياسة دينهم ... فأوعز باسعافهم فيما سألوه بالايجاب ... ويرز الاذن الامامي الأشرف — لازالت أوامره بالتوفيق معضودة —

(١) تجارب الامم لابن مسكويه ج٦ ص٢٣٩ ، مصر . (٢) ص ٢٢٥ .

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية طبعة ساخاو سنة ١٩٢٣ ص ٢٨٩ .

(٤) صبح الاعشى ، القلقشندي ج٥ ص٤٧٤ المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بترنيبك جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام ومن تضمه ديار الاسلام وزعيماً لهم ولمن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد وكل حاضر من هذه الطوائف وباد » .

خامسها — انه لم يهتم بالارساليات التبشيرية من المسيحيين في ايام ابن النديم وقبله بثلاثة قرون ثقر بيّا غير النساطرة الذين يرأسهم الجاثليق وقد قص علينا الرحالة ماركو بولو بانه وجد في سوقطرة[1] مسيحيين خاضعين لا للبابا بل لمن دعاه خطأً « بطريرك بغداد » بدلاً من جاثليق بغداد . ولسنا نعرف تاريخ اول ارسالية نسطورية قصدت الصين للتبشير ولكننا نعلم يقيناً انه في القرن الثامن للميلاد بعث (سلابسكا[2]) الاول النسطوري بمطران الى الصين[3] .

وهل بعد كل هذا يمكننا ان نقول — اعتماداً على عبارة ابن النديم — ان مؤلفنا هبط القسطنطينية — اللهم لا !

وأعود الآن الى ما كنا بصدده من البحث في حياة ابن النديم : فنتلمس سيرة ابيه ، فنجده — كما يتضح من المقالات الثلاث الاخيرة — ورّاقاً . ولسنا ندري أكان النديم لقبه او لقب ابيه او احد اجداده الاقدمين . وهو في كتابه ذكر تراجم طائفة من الندماء فبدأ باسحق بن ابراهيم الموصلي وانتهى بالآمدي ، لكنه لم يودع كتابته شيئاً يصح ان نستنتج منه انه كانت تربطه صلة قرابة باحد هؤلاء الندماء ، ولذلك فاني أرجح ان (النديم) كان لقباً له ، ويزيد ثقتي بهذا الترجيح ان ابن النديم عاصر عضد الدولة بن بويه وهو الذي « احيا العلوم وكانت مواتا وجمع اهلها وكانوا اشتاتا[4] » بل انه كان فوق ذلك « فاضلاً محباً للفضلاء مشاركاً في عدة فنون[5] » ولا يستبعد ابداً ان يكون مؤلفنا احد ندماء هذا

---

(١) جزيرة تناوح عدن من الجنوب (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) Slibàzka و معناه « المصلوب النضر (كذا) » .

(٣) Assemani - Bibl. Orient, p.p. 414 - 434

(٤) تجارب الامم لابن مسكويه ، ج ٦ ص ٤٠٨ .

(٥) ابن خلكان ، ج ١ ص ٤١٦ بولاق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السلطان العظيم او من رجال خاصته[1] .

ومهما يكن من امر فالذي نعتقده ان ابن النديم كان من أفاضل رواة العلم ويصح ان يقال انه كان كأبيه — ورّاقاً — اذ يتعذر على غير ورّاقي ذاك الزمن ان تحيط دائرة معارفهم بكل ماأورده مؤلفنا في فهرسته من ذكر مؤلفين ومؤلفات . فهو ترجم مشاهير الشعراء وخاملي الذكر ، واهتم باخبار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين وذكر اسماء كتبهم بالتفصيل ووصف أحوال المعزمين والمشعبذين والسحرة واصحاب الحيل والحركات وذكر كثيراً من الخرافات واهتم بعلوم الدين وأخبار الملوك والكتاب والمترسلين وشرح تعاليم مختلف الملل والنحل . أضف الى هذا انه عدد من الكتب والاسفار وذكر اوراقها وصفحاتها واسطرها مما لم يتمسن لغيره ممن سبقه ادعاصره ان يعدد ذلك .

ثم ضمّن كتابه تراجم ورّاقين كثيرين منهم فيلسوف اليعقوبية يحيى بن عدي قال : « قال لي يوماً وقد عاتبته على كثرة نسخه من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري . وقد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ولعهدي بنفسي وانا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل » . ومن هذا يستدل على انه كان يخالط طبقة من الناس لا يختلط بها الا ورّاقو ذلك العصر .

وانك لتلمس خبرته بمهنة الوراقة حين يتحدث اليك عن نعوت اقلام الامم وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها . وحين يعدد لك اسماء مذهّبي المصاحف ومجلديها ، ومثل هذه الملاحظات الدقيقة التي لا يسترعيها انتباه من لم يمارس الوراقة . والظاهر من مطابقة أشكال الخطوط التي اوردها في مؤلفه للخطوط التي رسمها ابن وحشية في كتابه[2] ان ابن النديم استقى شيئاً كثيراً من هذا المؤلف الثمين مما يتعلق بالخط واشكاله . وحسبك ان

(١) وذكر ابن مسكويه ايضاً ، ج٦ ص٤٠٨ مانصه : « وأفرد (عضدالدولة) لاهل خصوصه من الحكماء والفلاسفة موضعاً يقرب من مجلسه وهو الحجرة التي يختص بها الحجاب فكانوا يجتمعون فيها للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة وأقيمت لهم رسوم تصل اليهم وكرامات تتصل بهم » .

(٢) شوق المستهام في معرفة رموز الاقلام تحقيق هاس سنة ١٨٠٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تقابل ماجاء في صحائف ٩٢—١٣٤ من (رموز) ابن وحشية مع المقالة التاسعة لابن النديم لتحقق ذلك . ولم يخف ابن النديم مانقله وانما قال حين روى بعضه : « قرأت في بعض الكتب القديمة » وقال في الآخر : « قرأت في بعض التواريخ القديمة » .

والذي امتاز به مؤلفنا عن غيره تسامحه المذهبي ، فهو مع كونه شيعياً انصف اهل السنة وغيرهم من الفرق الاسلامية فذكر ماذكر عنهم باسناده الى قائليه حتى انه حين ترجم حياة ابي عمر الزاهد قال : « وسمعت جماعة من العلماء يضعّفون حكايته وانتسبوا به الى التزيد وكان نهاية في النصب والميل على علي عليه السلام ... وتوفي سنة خمس واربعين وثلاثمائة وسنّه ثمانون سنة ، لقّاه الله عمله » . وهذا منتهى التعفف في الدعاء على الخصم ومنتهى التسامح المذهبي الذي لاتجده الا عند جهابذة المفكرين وفطاحل العلماء الافذاذ .

اما نظره في المذاهب غير الاسلامية التي يذكرها في المقالة التاسعة من الكتاب ، فقد جهر برأيه في هذا الباب الى حدّ قلّ من جاراه فيه من المؤلفين القدماء . والفن الاول من هذه المقالة « يحتوي على وصف مذاهب الحرّانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة » (وهم الذين انتحلوا اسم الصابئة تقيّة كي ينجوا به ويسلموا من القتل بعد ان انكر المأمون عليهم لبس الأقبية وأحلّ دماءهم يوم رحل يريد بلد الروم فأفتاهم فقيه ان يقولوا نحن الصابئة الذين ورد ذكرهم في الكتاب) .

وقد ترجم ابن النديم حياة ابن وحشية الكلداني قال : « وكان يدّعي انه ساحر يعمل أعمال الطلسمات ويعمل الصنعة » ثم قال : « وقرأت نسخة هذه الأقلام بعينها في جملة أجزاء ... وربما وقعت هذه الخطوط في كتب العلوم التي ذكرتها من الصنعة والسحر والعزائم باللغة التي احدث اهلها العلم فلا تفهم — اللهم الا ان يكون الانسان عارفاً بتلك اللغة وهذا معوز وربما كانت هذه الكتابات تراجم تؤدي الى اللغة العربية فينبغي ان يتأمل وتجعل هذه الأقلام مثالاً لها ويرجع اليها ان شاء الله تعالى » . فانظر كيف انه احترم علم ابن وحشية واخذ عنه مع انه قال كان يدعى ساحر يعمل اعمال الطلسمات ويعمل اعمال الصنعة »

وذكر ابن النديم شيئاً كثيراً من مذهب المانوية ولم يُشر الى المصادر التي اخذ عنها والظاهر انه بنى اقواله في هذه المرة على ما كان يقوله له اتباع هذا المذهب في ايام معز الدولة (سنة ٣٣٦ — سنة ٣٥٦ هـ) وقد ترجم حياة رئيسهم ابي علي رجاء بن زادان بخت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال : « قال له المأمون أسلم يايزدانبخت فلولا ماأعطيناك اياه من الأمان لكان لنا ولك شأن . فقال يزدانبخت : نصيحتك ياأمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لايجبر الناس على ترك مذاهبهم . فقال المأمون : اجل . وكان أنزله بناحية الحرم ووكل به حفظة خوفاً عليه من الغوغاء » . ولم يعلق ابن النديم على هذه الحادثة شيئاً بل استحسن صنعها من المأمون على مايظهر وعندما كان يذكر الملوك والرؤساء الذين كانوا يرمون بالزندقة كان لايضيف اليهم كلمة تقريع اولوم . أليس هذا من تسامح ديني وسعة عقل ؟

اما أبحاث ابن النديم في الاديان القديمة فلاتزال حتى يومنا هذا مصدراً يقتبس منه علماء المشرقيات من مؤرخين وفلاسفة وهم يثقون باقوال المؤلف ثقة تامة جعلت لكتابه بينهم مكاناً عليا .

وقبل ان أختم كلمتي هذه في ابن النديم وكتابه أذكر شيئاً عن الأسلوب الذي نهجه في جمع تأليفه فقد قال في كتابه : « اذا ذكرت من المصنفين المشهورين انساناً أتبعته بذكر من يقاربه ويشبهه وان تأخرت مدته عن مدة من أذكره بعده وهذه سبيلي في جمع الكتاب والله يعين بمنه وفضله » .

وقال في موضع آخر حين تحدث عن الامام الناصر للحق الحسن بن علي : « هذا ماأرأيناه من كتبه وزعم بعض الزيدية ان له نحواً من مائة كتاب ولم نرها . فان رأى ناظر في كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها ان شاء الله تعالى » . وكذلك تراه في كل بحث طرقه يسند الروايات الى أصحابها وما رآه من التصانيف يقول رأيته وماسمع به يقول : « يقال كيت وكيت » ومن هذا نستنتج اموراً اربعة »

اولها — ان ابن النديم كان يجمع تراجم الذين يرغب في ذكرهم ويرتبها حسب الفنون لا حسب العصور .

ثانيها — ان غاية ابن النديم من تأليفه كانت خدمة العلم لانه سمح لغيره ان يضيف الى كتابه معلومات جديدة متى عثر عليها رغبة منه في إتمام الفائدة . واين من هذا قول الجاحظ[1] : « خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين فلم نأمن ان يسرعوا بسفيه رأيهم

(١) مع العلم بان ابن النديم كان يروي واما الجاحظ فكان يرى آراء حاسمة نخشى ان يُدس عليه مالبس له .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخفة احلامهم الى نقض كتابنا وتبديله وتحريفه عن مواضعه ... وأحببنا ان نأخذ في ذلك بالحزم وان نحتاط منه لانفسنا ... ونبادر الى تفريق نسخة منها (من رسالة الشيعة) وتصييرها في ايدي الثقات والمستبصرين ... فان شيب به شوب يخالفه اوأضيف اليه مالا يلائمه رجعنا الى النسخة المنصوبة . واستعلينا بها على المبطلين[1] » . بل واين منه ماروا ابن النديم نفسه في كتابه قال :

قال ابو عمر محمد بن عبد الواحد (الزاهد) هذه العرضة هي التي تفرد بها ابو اسحق الطبري آخر عرضة اسمعها بعده فمن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة وحرفاً واحداً ليس من قولي فهو كذاب علي وهي من الساعة الى الساعة من قراءة ابي اسحق على سائر الناس وانا أسمعها حرفاً حرفاً » . فأنت ترى الفرق البين بين نزعة ابن النديم العلمية ونزعة الآخرين المتشبعة بروح الأنانية .

ثالثها — ان ابن النديم نحا في جميع كتابه منحى العلماء المحققين فأعطى كل ذي حق حقه وأرجع الامور الى مصادرها ولم يبخس الناس اشياءهم بل تعمد الصدق فيما قال وروى .

رابعها — « انه لم يبرز في فن من الفنون اوعلم من العلوم سوى ترجمة الرجال باختصار واضافة مؤلفاتهم اليهم مع ملخص محتوياتها ، وهذا عمل مفيد جداً ، ولكني لا ادري لمَ أهمل ترجمته المؤلفون والمؤرخون ؟ أضعة نسبه ؟ اوضيق يده ؟ او لاحتباس شهرته في عصره او لسوء حظه ؟ او ان ترجمته دوّنت فلم تصل الينا ؟ وهذا هو الأرجح .

وبعد فكتاب الفهرست ذخر للعربي وأثر يشهد بما انتجته عقولهم ، واعتقد انه يجب على كل من يُعنى بالعرب واخبارهم وعلومهم وفلسفتهم ان يرجع اليه فيأخذ منه بعض حاجته من علم وفن ادب .

بيت المقدس : محمد يونس الحسيني

(١) ص١٨٩ مجموعة رسائل الجاحظ — مطبعة التقدم — مصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net